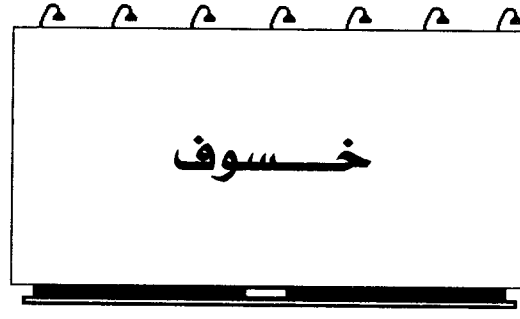
خـــسوف

خسوف

حينما يكون الحديث عن أمور تعبُّدية، أو فقهية، أو أحكامٍ شرعية محدَّدة، فإن المتحدِّث يحتاج في هذه الحالة إلى مقدرةٍ لغوية كبيرة حتى يقدِّم لنا المادة العلمية بأسلوب فيه قَدْرٌ من طُلاوةِ الأدب، وجمال العبارة، ودقَّة الوصف.

وصاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - متميِّزة في هذا الجانب كلَّ التميُّز، كأنما تأخذ مفردات اللغة وأساليبها من صندوق بجوارها تتناول منه ما تشاء.

وإذا كان القائل قد قال عن أبي العتاهية: إنَّه كأنَّما يأخذ الشعر من كُمِّه بسبب سلاسة لغته، فإننا - بكل إنصاف - نرى أن عائشة رضي الله عنها أحق بأن يقال لها: إنها كأنما تأخذ اللغة من كمِّها.

صلاة الخسوف عبادةٌ ذات أركانٍ وواجبات، ولها صفات خاصةٌ تختلف عن غيرها من الصلوات، فكيف نقلت لنا عائشة صورة هذاه الصلاة؟

تقول - فيما رواه البخاري ومسلم، ومالك في الموطأ: «خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله يصلي فأطال

القيام جداً، ثم ركع فأطال الركوع جداً، ثم رفع فأطال القيام، وهو دون القيام الأوَّل، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأوَّل، ثم سجد، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأوَّل، ثم ركع وهو دون الركوع الأوَّل، ثم سجد ففرغ من صلاته، وقد جُلِّي عن الشمس، فقام فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه فقال: إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلُّوا وتصدَّقوا واذكروا الله، ثم قال: يا أمَّة محمَّد، والله ما من أحدٍ أغير من الله، أنْ يزني عبده، أو تزني أَمَتُه، يا أمة محمد: لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

أرأيتم كيف تصرِّف عائشة الكلام على هذا المستوى من الجودة والإتقان؟

أرأيتم كيف تقدِّم لنا على طبق اللغة الراقية هذا العلم الغزير، وهذه الأحكام الشرعية الجليلة؟

إنَّ المتأمِّل لوصفها الدقيق لصلاة الكسوف ليشعر أنه أمام لاقطة دقيقة لآلة تصوير متطوِّرة ترينا الصورة في أوضح حالاتها، وتشعرنا بجمال هذا الترتيب والتنسيق في هذه العبادة المشروعة.

تسلسل في طول القيام والركوع والسجود من الأطول إلى الأقصر، وابتهال إلى الله وصدق توجُّهٍ إليه، حتى جُلِّي عن الشمس، وزال عنها حاجب الخسوف.

ثم تنقل لنا صاحبة الحرير الأخضر صورة أخرى نرى فيها الرسول ﷺ قائماً يخطب مبيِّناً للناس الحكمة من آيتي خسوف الشمس والقمر اللتين يخوِّف الله بهما عباده، ولا علاقة لهما بموت أحدٍ أو حياته، وقد علمنا من روايات أخرى للحديث أن خسوف الشمس كان في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم تنقل لنا كلمات أخرى من خطبة الرسول ﷺ، فيها توجيهٌ آخر، قد يتبادر إلى ذهن غير المتأمِّل أنه خارج عن موضوع الخسوف، لا علاقة له به.

إنه قول الرسول ﷺ: «يا أمة محمد والله ما من أحدٍ أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته».

ولكنَّ المتأمِّل يدرك أن هذا التوجيه مرتبط بالخسوف ارتباطاً قوياً، فمادام الخسوف آية من آيات التخويف من الله لعباده حتى يتوبوا إليه، فإن من أعظم الذنوب التي تُعمل في الخفاء عن الناس «الزِّنا»، فالرسول ﷺ يوجِّه الناس إلى غيرة الله الكبيرة على الناس، وفي ذلك إيحاء بأنَّ الخسوف إنما يكون للتخويف من مثل هذه الأعمال.

رضي الله عن صاحبة الحرير الأخضر، فهي مثالٌ للمرأة المسلمة الواعية التي دأبتْ على إعداد نفسها علمياً وثقافياً وأدبياً لتكون ذات دور كبير في هداية الناس - بإذن الله -.